

في مفهوم الاختلاف وأشكاله In the concept and forms of difference

محمد طاهير / طالب ماستر
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2.
tahirmohamed995@gmail.com

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى البحث في حقيقة مفهوم الاختلاف وأهم أشكاله المتنوعة بتنوع مجالات الحيات الفكرية منها والدينية والثقافية وغيرها. هذا المفهوم الذي نال اهتماما بالغاً من طرف المختصين من فلاسفة وفقهاء وعلماء اللغة، نظراً للتضارب بين آرائهم حول التمايز الموجود بينه وبين مفهوم الخلاف، حيث أن كل مفهوم من هذين المفهومين يحمل دلالات تختلف عن الآخر، سواء من حيث المصدر أو الغاية.

الكلمات المفتاحية: الاختلاف؛ الخلاف؛ الحوار؛ الفكر؛ الدين.

Abstract :

This research paper aims to examine the reality of the concept of difference and its most diverse forms by the diversity of areas of intellectual, religious, cultural and other life. This concept has received considerable attention from specialists from philosophers, scholars and linguists, given the conflict between their views on the distinction between it and the concept of disagreement, since each of these concepts has different connotations, in terms of both origin and purpose.

Keywords: Difference; Disagreement; dialogue; Thought; Religion.

مقدمة:

يعتبر الاختلاف حقيقة مشروعة وسنة كونية سنّها الله بين جميع الناس- بمختلف أجناسهم وأعراقهم- له علاقة بالفروق الفردية إلى حد كبير، بحيث يستحيل بناء الحياة، وقيام علاقات اجتماعية بين الناس، إذا كانت القدرات متساوية ومتطابقة، فلا مجال -عندئذ- للتفاعل والعطاء في غيابها؛ لأن الله تعالى أقر الاختلاف بين الشعوب والأجناس في اللغة والأشكال والقوميات، وشرع التعدد والتنوع في كل المجالات الفكرية والثقافية والمعرفية والدينية. فالاختلاف هو الرابط الإنساني الوحيد الذي يجمع بين الشعوب والأمم، وهو السبيل للتعاون والتآزر لحل المشكلات وتجاوز المعضلات والتطلع نحو مستقبل مشرق بعيد عن جو الصراع وثقافة الإقصاء وتهميش الآخر.

هذا، ويعد مفهوم الاختلاف من بين المفاهيم الذي أثار حفيظة الفلاسفة والفقهاء، وعلماء اللغة، نظراً لتباين مدلولاته المتعددة مع مفهوم الخلاف، بحكم أن كل مفهوم من هذين المفهومين يحمل دلالات تختلف عن الآخر، سواء من حيث المصدر أو الغاية. والسؤال الذي

نطرحه هو: ما حقيقة كل من الاختلاف والخلاف؟ هل كل اختلاف يؤول إلى الخلاف؟ وما هي أهم أشكال ومجالات الاختلاف؟

عرض:

1- بين الاختلاف والخلاف:

رغم التقارب اللغوي الظاهر بين هذين المفهومين، لدرجة أنهما قد يحملان المعنى نفسه، أو قد يحل أحدهما محل الآخر، إلا أن هناك تمايز واضح بينهما، وهذا ما سنحاول إبرازه من الناحية اللغوية والاصطلاحية.

أ- من الناحية اللغوية:

الاختلاف والخلاف في المعنى العام هما ضد الاتفاق، وهو أعم من الضد كما يقول راغب الأصفهاني: "الخلاف اعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين"¹، أما من حيث الاشتقاق فهما متمايزان، لأن "الخلاف مصدره خالف، والاختلاف مصدره اختلف، وتخالف الأمران؛ أي لم يتفقا، وكل ما لم يتساوى فقد تخالف واختلف"².

ب- من الناحية الاصطلاحية:

يرى الكثير من العلماء بأن الاختلاف والخلاف متباعدان في المعنى، حيث يأخذ كل منهما طريقا مغايرا عن الآخر، وذلك من عدة جوانب أبرزها:

- للاختلاف معنيين، معنى عام ومعنى خاص: ففي المعنى العام هو أن يأخذ كل واحد من المختلفين طريق غير طريق الآخر في فعله أو قوله. وفي المعنى الخاص فهو يطلق على ما يقع بين طرفين أو أكثر، إذا بني قولاهما أو أحدهما على دليل منقول، لأنه مبني على التباين في الرأي والمغايرة في الطرح، أما الخلاف فيشير إلى عدم الاتفاق في الرأي وتعارض المواقف إزاء الفكرة الواحدة أو أكثر، فيكون عادة فيما ليس فيه دليل نقلي، لأنه منصب على الشخص، وبهذا يكون الاختلاف متعلق بالفعل الواقع بين المختلفين، والخلاف متعلق بالمسألة والحكم، فإذا اختلف الناس وشاع هذا الخلاف وذاع فهو الخلاف، وإلا فهو اختلاف³.

- الاختلاف باعتباره تنازعا نظريا هو أمر محمود، على عكس الخلاف الذي عادة ما يتحول إلى نزاع وخصام وفتنة، وبذلك يصبح أمرا مذموما، ومعيار التمييز بينهما هو أن الاختلاف يحمل جانب تواصل خال من الجهل والتقليد والهوى، ويحضر فيه العقل والدليل، بينما الخلاف يحمل جانب من الذاتية وكثيرا ما يغيب فيه العقل ويحضر فيه الجهل والتقليد⁴، لهذا نجد أن الاختلاف كما دعت إليه الشعائر الدينية يهدف إلى التنوع والإثراء، ويدعو إلى الوحدة والثبات في الرأي والدين، وكل من يدعو إلى محو الاختلاف وإحلال الخلاف فدعواه مخالفة لفطرة الله لقوله تعالى: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن يصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}⁵.

ويقول أيضا في هذا الإطار الشيخ يوسف القرضاوي: "وإن من العبث كل العبث أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء، وجعلهم نسخا مكررة ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا غير ممكن، لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر عليها الناس"⁶.

- الاختلاف هو أكثر عمقا وبعدا من الخلاف، لأن التنوع في الأفكار والآراء قد يولد إبداعا جديدا، وهذا ما نلتمسه في الاختلاف الفلسفي، كون الفيلسوف لا يبحث عن الإجابة لمشكلات المجتمع، بل يحاول تشخيصها وإضفاء البعد النقدي عليها، هذا النقد الذي يدعو إلى الانفتاح

على الآخر والتفكير فيه، والوقوف على ماهيته بعيدا عن الذاتية وعن الاختلاف المطلق⁷، بينما الخلاف هو إقامة الأدلة وإيراد الحجج، والاستنباط ونقد أدلة الخصوم ودفع الشبهة وإبطال حجج الخصم، وهذا ما يولد في الأخير التعارض وإحداث قطيعة بين طرفي الحوار وقد يترتب عنه النزاع، لأنه قائم على دوافع ذاتية مبنية على الهوى والرغبة، وهذا النوع من الخلاف نجده على المستوى العقدي في الفرق الكلامية على سبيل المثال المعتزلة والأشاعرة والجبرية وغيرها من الفرق، التي ادعت في البداية الدفاع عن تعاليم العقيدة؛ أي أخذت أمهات العقائد معللة بأدلتها العقلية، ومن القرآن والسنة بالخصوص ما هو متعلق بالآيات المتشابهة، لكنها انتهت إلى الوقوع في الخلاف وفتح باب للتعصب والتخاصم⁸.

هذه هي أهم نقاط التباين، لكن يبقى كل من الاختلاف والخلاف رحمة، عندما يتعلق بالوعي وترجيح سلطة العقل، فمن المنطقي أن نختلف في وجهات النظر، لكن دون اللجوء إلى التعصب؛ لأن ليس كل اختلاف هو خلاف.

2- أشكال الاختلاف: للاختلاف أشكال عديدة نذكر منها:

أ- الاختلاف الديني:

يعد إحدى النماذج الذي شهدته البشرية (منذ بداية الخليقة)، فهو جوهر المجتمعات القديمة، وهو أكثر شيوعا من الاختلاف اللغوي، والعنقي والثقافي والفكري، وهذا النوع من الاختلاف هو اختلاف لا يحمل جوهر الديانة، أي لا يمس المبادئ التي يقوم عليها الدين، بحكم أن الديانات السماوية منها اليهودية والمسيحية والإسلام جاءت متأخرة مقارنة لما عرفه الإنسان في البداية، بقدر ما هو اختلاف في فهم النص الديني. وهذا الاختلاف الموجود بين الأديان إنما راجع إلى تنوع في المستويات الثقافية والتركيبية الاجتماعية⁹.

كما أن الاختلاف الديني يفهم من ناحيتين: الأولى خاصة بالتنوع والتعدد وهذا ما لم تختلف عنه الديانات السماوية كونها دعت إلى ضرورة تفعيله في الحياة، وأما الثانية فتتمثل في فهم النص وكيفية التعامل معه، والذي يترتب عنه عادة نوع من الجدل الذي يصل إلى حد المساس بتعاليم كل ديانة داخليا، وخير مثال ما حدث في غرب أوروبا من حروب بين المذاهب الدينية المسيحية، التي جرت بين الكاثوليك على مسيحيي البروتستانت كونهم اختلفوا مذهبيا، أو ما حدث أيضا في العالم الإسلامي بميلاد المذاهب والفرق الكلامية بسبب الاختلاف في فهم النص الديني¹⁰، علما أن الإسلام كان حريصا على وحدة الأمة ونبذ كل أشكال الخلاف، حيث قصا لنا الله سبحانه وتعالى تاريخ أهل الأديان السابقة، للعبرة والحذر، فبين كيفية نهوض الأمم وبناء الحضارات، وجلي لنا أسباب التدهور والانحطاط وحذرنا من السقوط في علة التفرق وداء الخلاف وزلقات التحزب الضيق، وهذا ما أكده الله تعالى في قوله: {ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون}¹¹.

ب- الاختلاف الثقافي:

وهو ذلك الأفق الذي يُعين المجتمعات والأمم على الانفتاح على بعضها البعض، ومواجهة الانغلاق والانسداد والانطواء على الذات، أو بالأحرى تجاوز أحادية البعد الثقافي، والتطلع نحو المشاركة الجماعية سواء داخل المجتمع الواحد، أو مع باقي المجتمعات الأخرى، من أجل تحقيق التكامل الثقافي والحضاري بعيد عن الصراع والتصادم. أو هو شكل من أشكال الاختلاف الذي يراعي فيها البعد الثقافي كسمة جوهرية للتمايز بين المجتمعات والأمم، وذلك من عدة جوانب، اللغة والدين، العادات والتقاليد، والتاريخ والأدب والفنون.

كما يعنى به أيضا تلك التقاطعات المعرفية التي تمس جميع الجوانب التي تميز ثقافة كل مجتمع عن الآخر، شريطة حضور الوعي لاستيعاب أفضل، من أجل تحقيق التفاعل وتبادل الخبرات بمعزل عن الصراع والخلاف¹².

إن المجتمع الإسلامي ينظر إلى الاختلاف الثقافي من جانبين: اختلاف ثقافي داخلي وهو أمر غير مرغوب فيه كونه يؤدي إلى التفرقة والصراع كاختلاف الفرق والمذاهب الكلامية عن بعض القضايا المتعلقة بالدين، واختلاف ثقافي خارجي وهو أمر مرغوب فيه، لأنه متعلق بالآخر ويدعوا إلى الاحتكاك الثقافي.

إلا أن هذا الشكل وخاصة في ظل ما يسمى الآن بالعولمة الثقافية، أصبح يشكل خطرا على بعض الثقافات منها، بسبب الهيمنة الأمريكية التي تريد أن تروج لثقافتها الاستهلاكية من أجل تدمير البنى الثقافية للمجتمعات الضعيفة والقضاء على مقوماتها اللغوية والدينية والفكرية¹³.

ج- الاختلاف الفكري:

هذا الشكل لا يظهر على درجة واحدة، بل بدرجات متفاوتة بداية من الاختلاف الفكري لدى الفرد الواحد، ثم يليه اختلاف أفكار الأفراد داخل المجتمع الواحد، ثم اختلاف أفكار المجتمعات حول العالم، أو بالأحرى بين الأمم. ويميز المفكر العربي "طه عبد الرحمان" بين نوعين من الاختلاف الفكري: الأول لئِن يقع بين أمتين اختارتا التعارف كسبيل للتواصل وتبادل الأفكار، والثاني صلب وهو الذي يقع بين أمتين اختارتا التعاون كسبيل للتعامل، وهذا الأخير أدنى من الأول، لأنه يخدم طرف واحد فقط، بحيث تُلقَى إحداها بفكرها إلى الأخرى ولا تتلقى منها فكرها¹⁴.

على الرغم من تعدد أشكال ومجالات الاختلاف يمكن عده سبيلا وتمهيدا للحوار، إذ لا حوار في غياب الاختلاف، وفي هذا الإطار يقول طه عبد الرحمان "إنه الطبيعة الجوهرية لكل كلام، لأن الصبغة الحوارية للكلام تقتضي وجود اختلاف، فأصل الكلام هو الحوار والحوار يؤدي إلى الاختلاف"¹⁵. خاتمة:

بناء على ما تقدم ذكره، يبقى التضارب حول حقيقة مفهوم الاختلاف وتمايزه عن الخلاف يكتنفه نوع من الضبابية- رغم التقارب بينهما من الناحية اللغوية ضد الاتفاق- لكن يبقى الاختلاف ينظر إليه من جانبين: اختلاف محمود (إيجابي) واختلاف مذموم (سلبي)، فأما الأول فهو قائم على التنوع (الثقافي، الفكري، الديني...) وهو أمر ضروري لابد منه، وهو فطرة ملازمة للبشرية ونعمة من نعم الله تعالى، فالإسلام لا يعتبر الاختلاف والتنوع عقبة أمام التعايش والتفاعل بين المجتمعات، بقدر ما هو رحمة، بل هو عامل يساعد على الوحدة والتآزر والتعاون والتسامح.

ويعد أيضا دافعا للتعارف كونه يؤدي إلى التكامل والتناغم في الرأي، وهو ظاهرة طبيعية لا يمكن تفاديها، ومظهرا من مظاهر الإرادة في الإنسان. وأما الثاني فهو قائم على التضاد قد يتحول إلى خلاف، لاسيما إذا انعدم فيه الحوار، وعادة ما ينتهي إلى البغضاء والعداوة والتفرقة وإضعاف روح الأمة.

لهذا يبقى الاختلاف غير الخلاف أمرا مشروعا ينبغي أن يتحلى به كل فرد أو مجتمع أو أمة، لتحقيق روح الأخوة والمحبة والتسامح، فهو بمثابة جسر التواصل والتفاهم بين الأنا والآخر.

-
- ¹ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق سوريا، ط2، 02، 1992، ص294.
- ² ابن منظور، لسان العرب، ج4، منشورات أدب الحوزة- قم- إيران، 1405 هـ، ص192.
- ³ أبي معاذ موسى بن يحيى الفيحي، الحوار، أصوله وأدابه، دار الخضير للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، السعودية، 1427هـ، ص55.
- ⁴ حمو النقاري، منطق تدبير الاختلاف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 01، 2014، ص43.
- ⁵ سورة النور، الآية 63.
- ⁶ يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفوق المذموم، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 02، 1991، ص64.
- ⁷ علي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 01، 1993، ص29.
- ⁸ علي عبد الفتاح المغربي، حقيقة الخلاف بين المتكلمين، مكتبة وهبية، القاهرة، مصر، ط1، 01، 1994، ص19.
- ⁹ نبیة قارة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 01، 1998، ص78.
- ¹⁰ علي أومليل، في شرعية الاختلاف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 02، 1993، ص13.
- ¹¹ سورة الروم، الآية، 31-32.
- ¹² سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 01، 2008، ص13.
- ¹³ إدريس هاني، المفارقة والمعانقة. رؤية نقدية في مسارات العولمة وحوار الحضارات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001، صص (68-69).
- ¹⁴ طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 01، 2005، ص144.
- ¹⁵ حمو النقاري، منطق تدبير الاختلاف، ص 42.